الباب السابع

البخاري والمنهج الأوربي التاريخي الحديث

اثر منهج البخارى والمحدثين فى المنهج التاريخى الاوربى الحديث مع المقارنة

وبعد أن وصل تدوين الحديث الى أوج العظمة والدقة فى القرن الثالث « العصر الذهبى » لتدوين السنة الذى حمل لواء نهضته الامام البخارى بمنهجه القويم ومقاييسه الدقيقة وساعده على ثبات منهجه ما كان قبله من عناية المحدثين بالسنة ومناهجهم الدقيقة فوجد الثقات المحافظين على تراث نبيهم فى القرون الخيرة الأولى •

وكان الزمن بين اشتغال البخارى بالعلم وبين وفاة النبى صلى الله عليه وسلم قرنين فقط بالنسبة للمقياس الزمنى وثلاثة أشخاص بالنسبة للاسناد العالى وبينه وبين وفاة الصحابة قرن واحد — والثقافة ثقافة وحى ونبوة وسعادة دنيا وأخرى والرواة هم الأخيار الأطهار الثقات وضعوا لحراسة السنة المناهج المنظمة الدقيقة المعلومة فى كتب أصول الحديث وقد تقدم منهج البخارى الدقيق •

وأبين هنا أثر منهج البخارى والمحدثين فى المنهج الاوربى الحديث وحقيقة هذا المنهج الحديث وهل بلغ مبلغ منهج البخارى والمحدثين ؟ !

وبعد وفاة البخارى بحوالى عشرة قرون بدأت فكرة تحديد منهج للتاريخ تظهر فى أوربا وقوبل هذا المنهج بالحفاوة البالغة والتقدير الكبير ونقله الشرقيون على أنه أمر حدث جديد والحق أنه مأخوذ من حيث الجملة من منهج المحدثين وشيخهم البخارى •

تأثر المنهج الاوربى الحديث بمنهج البخارى والمحـــدثين

يقوول الدكتور محمود قاسم رئيس قسم الفلسفة بدار العلـــوم وعميدها تحت عنوان مراحل البحث التاريخى الأوربى (١) لم يتتبـــع القدماء « الأوربيون » منهجا سليما فى دراسة التاريخ فكانوا يخلطون بينه وبين فن القصص وكانوا يجمعون الوثائق والروايات كيفما اتفق ثم يصهرونها ويصبونها فى قالب أدبى جذاب •

لكن علماء المسلمين عنوا عناية كبرى بنقـــــد الرواة وبتمحيص طرقهم فى النقل ولاسيما فيما يتعلق بدراسة أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وقد حدد ابن خلدون المؤرخ للبخارى وغيره من المحـــــدثين العالم بمنهجهم ، قواعد البحث فى التاريخ الى مستوى العلم الجديدة بهذا الاسم ثم اتجه الأوربيون الى العناية بالدراسات التاريخية وبينوا القواعد التى يجب على المبتدىء احترامها وانتهوا الى تحديد مراحل البحث تحديدا دقيقا ويعرض الدكتور قاســـــم لدراسة مراحل البحث التاريخى تحت عنوانين أساسيين التحليل ــ والتركيب طبقا لما وصل اليه سينيوبوس ودونو • وفريمان وغيرهم واليك البيان •

التحليل التـــــاريخى

اذا انتهى الباحث من اختيار موضوع دراسته ومن جميع الوثائق الخاصة به بدأ يحللها ويمحصها والتحليل نوعان خارجى ــ وداخلى •

أولا ــ التحليل الخارجى :

وتتكون مرحلته من عمليتين رئيسيتين هما :

(أ) نقد الوثائق يقول سينيوبوس « لا وجود للتاريخ بدون وثائق وكل عصر ضاعت فيه وثائقه يظل مجهولا الى الأبد •

ولما كانت مادة التاريخ لاتقع تحت ملاحظاتنا بطريقة مباشرة ولمـــا

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث العلمى ص ٣٦٨ ط الانجلو المصرية •

كانت الوثائق السبيل الوحيد الى معرفتها فانه يجب الحـــــدر فى استخدامها والعناية بين الصحيح والزيف منها تتبين ضرورة هذا النقد اذا علمنا أن الانسان يميل بطبعه الى تصديق الأخبار دون تمحيص اذ التصديق أقل مجهودا من المناقشة والتسليم أيسر من النقد وتكديس الوثائق كيفما اتفق أقل عناية من فرزها وتقديرها وقد بين العلامـــة سينيبوس أنه يجب الحذر من بعض العبارات العقلية كالميل الى استخدام أول نسخة تقع لدينا ولو كانت غير دقيقة وكالميل الى الاعتماد على أقدم النسخ ولو كانت أردأ من النسخ الأقرب عهدا وكالميل الى اتخـــاذ الأغلبية حكما اذا اختلفت النسخ فيما بينها مع أن هذا لايدل على شىء البتة وقد ضرب سينيوبوس لذلك مثلا فقال فلنفرض أن هناك عشرين نسخة يشترك فيها ثمانى عشرة نسخة فى نقطة واحدة هى (أ) .

ويشترك النسختان الأخريتان فى نقطة مخالفة هى (ب) ففى هذه الحالة يميل الباحث المتسرع الى تأكيد صحة (أ) دون (ب) .

لكن من المحتمل جدا أن تكون كثرة المجموعة الأولى صورية بأن تكون احدى النسخ أصلا والباقى منها فروعا ولذا فان الباحث المدقق يتساءل فيقول هل (أ) أكثر احتمالا للصدق من (ب) أم لا (١) .

(ب) التحقق من شخصية صاحب الوثيقة .

لا تكفى المقارنة بين مختلف النسخ بل لابد من الوقوف على مصدر كل وثيقة وأين ومتى كتب ؟ ومن كتبها ؟ وذلك أنه لافائدة من استخدام وثيقة نجهل صاحبها وهذه العملية هامة جدا ولاسيما اذا كان المؤرخ يدرس احدى وثائق العصور القديمة أو المتوسطة .

فان كتابها كانوا يعنون بتوقيع كتاباتهم أو تحـــديد تاريخها وقد يسارع الباحث الى تصديق نسبة احدى الوثائق الى أحد الكتاب اذا رأى أنها تحمل توقيعه لكن يجب الحذر من هذا الميل الساذج الى سرعة التصديق فان الانتحال أمر مألوف وأسبابه عديدة ونحن نعلم أن بعض

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٢٦٨ .

فراعنة مصر لم يتورعوا عن محو أسماء سابقيهم ونسبة أثرهم الى أنفسهم حقا أن خير وسيلة الى معرفة شخصية الكتاب هى التحليل الداخلى غير أنه يجب الاعتماد قبل ذلك على بعض العلاقات الخارجية كالخط والورق واللغة وكثيرا ما تكون دلالة هذه العلامات حاسمة فتقرر تزوير الوثائق وانتحالها فان كثيرا من المزيفين لا يتخذون جميع أسباب الحيطة فيستخدمون كلمات وجملا وألوانا من الاساليب التى لم تكن مألوفة فى العصر الذى ينسبون اليه الوثائق ، كذلك يجب المقارنة بين الوثائق المختلفة فان ذلك يزيدنا علما بالظروف التى دونت فيها الوثائق الصحيحة وبمواضع التزييف أو التحريف فى غيرها .

وتستخدم المقارنة فى التفرقة بين النص الذى اشترك فى كتابته أفراد عديدون لأن اضطراب الاسلوب أو عدم اتباعه دليل على تعدد كاتبى الوثيقة أو على أن بعضهم ينقل عن بعض وتؤدى هذه العملية الى بعض النتائج السلبية يرى «سينيوبوس» أن التحليل الخارجى لايؤدى الى بعض النتائج الايجابية وانه اذا ارشدنا الى الوثائق الرديئة التى يجب عدم استخدامها انه لا يوقفنا على كيفية استخدام الوثائق الجيدة ولكن مع ذلك يجب الاعتدال فى النقد فان بعض دارسى الوثائق يغلون فى النقد فيرون التحريف والتزوير والطلاسم فى كل مكان على الرغم من وضوح النصوص التى يدرسونها ولذا يجب الوقوف عند حد معلوم والا انتهى الأمر الى الشك المطلق وهناك آخرون يفقدون لمجرد النقد وكلما انتهوا الى وثيقة بحثوا عن غيرها ظانين بأن التاريخ نوع من الرياضة العقلية وان أهمية الوثيقة لا تقاس بما تحتوى عليه من حقائق بما تثيره من صعوبات أ . هـ .

وليت المغرمين بنقد الحديث على غير موازين والمغرمين بتتبع الغربيين يستمعون الى سينيوبوس فانه يعيب على من شك عند وضوح النص فما بال من يشك بوضوح النص وصاحبه وتوفر أسمى المقاييس؟.

ثم ان أصحاب المنهج الحديث لم يطلقوه فى كل شىء بل ذكروا ان من وسائله العلوم المساعدة — ذهب دونو الى ضرورة بعض الدراسات

بوسيلة يستعين بها الباحث على فهم الوثائق التاريخية ومن هذه كتب كبار الكتاب والفلاسفة الذين يجب قراءة كتبهم « كهيرودوت ، وتاسيت، وميكيافيلى ، وفلتير ، ونص على ضرورة الاطلاع على انتاج كبـــار الفلاسفة والمؤرخين •

وقال « فريمان » يجب على المؤرخ أن يحيط علما بكل شيء فلسفة وقانونا واقتصادا وعلم أجناس وجغرافيـا وعلوم طبيعية وذلك لأنه سوف يلقى فى أثناء قراءته للنصوص التاريخية أشياء من هذا القبيل وان كان سينيوبوس يرى أن من يقوم بدراسة الوثائق أشد ما يكـون حاجة الى بعض الفنون والعلوم اذ كيف تجدى الفلســفة اذا وقف المرء حائرا أمام احدى الوثائق التى يجهل لغتها أو يعجز عن حل رموزها •

والمهم أن سينيوبوس يحرم الاسراف فى النقد للنص الواضح كما أن « دونو » وفريمان ــ ولم يعارضهما سينيوبوس يقررون أن هناك من الكتب ما هى صحيحة معتمدة مسلم بصحتها عندهم ولم يرق اليها الشك بل هى تكون كوسيلة عند بعضهم لايضـــاح الشـــك فى غيرها وتدعيم الباحث وهى كتب كبار كتابهم وفلاسفتهم الـــذين يجب قراءتها كمـــا يقولون رغم أنها ألفت من غير منهج ، فليت أعداء السنة يستمعون لذلك فيعترفون بعد تحقق قوة مقاييس المحدثين بالتسليم والوجوب بالاعتراف لصحة مثل كتاب البخارى حتى تكون لهم أصـــالة كغـــيرهم ولعلهم لا يرتاعون ويرمون بالتأخر من يقـــول بلفظ الوجوب بالاعتراف بالصـــحة للكتب المرسومة بذلك بعدما سمعوا ممن يعتبرون بأقوالهم من الغربيين فى كتبهم التى لاتقاس ولاتوزن فى كفة صحيح البخارى أو غيره واتخذوا هذه الكتب مرجعا سليما لتصحيح ما ارتابوا فيه من المســائل العلميـــة التاريخية واهتموا بدراسة تلك المراجع ليستعينوا بها فى مهمتهم العلمية، الغربيون يقررون ذلك والناقدون للسنة ينقدون لمجرد الهـــوى والغرض ورغبة منهم فى ادعاء الوصول الى ما لم يصل اليه غيرهم ولو بحثت الحال لوجدتهم بعيدين عن فقه الحديث ومصطلحاته وأساليبه وطرقه وكان من

الحرى بهم أن يدرسوا قبل أن ينقدوا وأن يتعلموا قبل أن ينصبوا أنفسهم أساتذة على أساتذة الفن •

ونعود الى استكمال مراحل المنهج الأوربى الحديث •

ثانيا ــ التحليل الداخلى :

يطلق هذا الاسم على مجموعه العمليات التى يستخدمها الباحث فى فهم محتويات الوثائق وتقدير الظروف التى أحاطت بكتابتها فهى خاصة بالتحقيق من صدق النص التاريخى من جهة الموضوع لا من جهة الشكل وهى ضرورية للسبب الآتى وهو أن الظواهر الماضية لا تقع تحت ملاحظتنا ولايمكن الثقة بما يذكره الرواه عنها دون تمحيص أو نقض فان أخبارهم تحتمل الكذب والخطأ وتقوم عمليات هنا على أساس استعادة الخطوات التى مر بها الراوى منذ مشاهدته للحوادث حتى وقت تسجيلها كتابة •

والتحليل الداخلى نوعان : ايجابى وسلبى •

(أ) التحليل الداخلى الايجابى : يستخدم هذا التحليل للتفرقة بين العناصر الاولية التى يحتوى عليها النص التاريخى تمهيدا لفهم كل عنصر على حدة وللوقوف على المعنى الحقيقى الذى ترمى اليه الالفاظ والعبارات غير أن كثيرا من المؤرخين لا يوجهون عناية كافية الى هذه الناحية ويميلون الى قراءة النصوص قراءة سريعة للاقتباس منها دون تحديد المعانى الحقيقية التى يرمى اليها الكاتب • حقا ربما لم تكن هناك ضرورة كبرى الى تحليل الوثائق الخاصة للعصور الحديثة تحليلا تاما وذلك لقرب لغتها من لغة المؤرخ لكن ليس الأمر كذلك فيما يتعلق بوثائق العصرين القديم والوسيط اذلا مندوحة للباحث حينئذ من الاعتماد على تحليل ايجابى دقيق فان لغته وتفكيره يختلفان اختلافا كبيرا عن لغة وتفكير كاتب الاصل التاريخى الذى يقوم بدراسته • وهكذا نجد أنه يقرر بأنه ربما لم تكن هناك ضرورة كبرى الى تحليل الوثائق الخاصة بالعصور الحديثة تحليلا تاما وذلك لقرب لغتها من لغة

المؤرخ ويكتفون بذلك فأين هذه من المناولة فضلا عن السماع عند البخارى والمحدثين •

ويقول سينيوبوس أنه من المحتمل أن تستخدم التورية أو الدعابة أو الفكاهة أو التعمية ولا شك فى أن هذه الأمور الأخيرة تختلف باختلاف العصور والحوادث التى يلمح اليها أو يتندر بها وتستخدم القاعدة الآتية فى التفرقة بين المعنى الظاهر والمعنى الحقيقى حينما يكون المعنى الحرفى غامضا أو غير مفهوم أو غير متجانس أو يتعارض مع آراء الكاتب أو الحوادث المعروفة لديه فانه يجب علينا أن نستنتج من ذلك أنه يستخدم التورية ويمكن تحديد المعنى الحقيقى بالمقارنة بين الفقرات التى تحتوى على التعبير الذى يظن أنه ذو دلالة خفية ومع ذلك فليست نتائج المقارنة يقينية بحال ما •

وهكذا لا يسرعون الى رفض النصوص بمجرد غموضها بل يلتمسون التورية والمجازات •

(ب) التحليل الداخلى السلبى :

ويتمثل فى دراسة الظروف التى وجد فيها كاتب الوثيقة أو شهادة الآخرين الذين رأوا الظواهر أو الحوادث التاريخية كما تتمثل فى دراسة الأسباب الخارجية والبواعث النفسية الداخلية التى ربما دعته الى الكذب أو أدت به الى الخطأ والقاعدة العامة تنص على وجوب الشك فى كل راو حتى تتوفر بعض الأسباب القوية التى تدعو الى الثقة به ويحتاج تحليل الأصول التاريخية على هذا النحو الى مجهود كبير قد يصرف كثيرا من الباحثين عن اعطاء هذه المرحلة الأساسية حقها من العناية لكن العادة والدربة يخففان من مشقة هذا العمل ويكسبان المؤرخ نوعا من الحدس الذى يعينه على اصابة مواطن الريبة دون عناء كبير وقد حدد سينيوبوس القواعد العامة التى يجب اتباعها فى هذه الحالة ووضعها على هيئة مجموعتين من الأسئلة تسمى احداهما الدوافع التى تدعو الى الكذب وتسمى الأخرى البواعث التى ينشأ عنها الخطأ وتتكون المجموعة الأولى

من الاسئلة الآتية مع بعض الاقتصار على العناصر الهـامة وسنجد أن أصول هذه المبادىء انما هى كما قرر الدكتور قاسـم مأخوذة من رواة المحدثين « وشيخهم البخارى » مع قصور بالغ يجبرهم الواقع على عدم تحققه لاطالة الزمن من ناحية وعدم حراسة المعلومات منذ نشـأتها من ناحية أخرى وعدم قداستها والتزامها المنهج فى الزمن الماضى كمـا قرر الأوربيـون بأن سـير التاريخ على غير منهج وذل ذلك بخـلاف منهج المحدثين فى تراثهم النبوى وهذه هى أسئلة المجموعة الأولى :

١ ـ هل أراد صاحب الوثيقة تحقيق مصلحة خاصه وهل أراد أن يخدع القارىء وأن يحمله على القيام بفعل أو صرفه عنـه ؟ وهل أورد أخبارا كاذبة لتحقيق هذا الغرض ؟ .

٢ ـ هل كان الراوى ينتمى الى جمـاعة خاصـة يميل الى نصرتها ويبررسلوكها ويظهرها فى وضع مشرف ؟ .

٣ ـ هل وجد الراوى فى مركز أو ظروف أكرهته على الكـذب ؟ وهذا ما يحدث لكاتب الوثائق الرسمية عندما لا يتفق الصدق مع السياسة العامة للدولة أو التقـاليد أو الشعور العام وحينئذ يضطر الكـاتب الى التمويه والى القول بأن الظروف التى يؤرخ لها ظروف عادية .

٤ ـ هل جره الغرور بشخصه أو بجماعته الى الاختلاق والتحريف؟

٥ ـ هل أراد الراوى التقرب الى الجمهور وتملقه واثارة عواطفه وهل شوه الحوادث حتى يكون على وفاق مع آراء معـاصريه ونزعاتهم وأهوائهم ولو كان لا يشاركهم فى شىء من ذلك ؟ ولذا يجب الحـذر من عبارات المجاملة والود والاخلاص اذ أننا نسارع عـادة الى تصـديق مثل هذه العبارات من معاصرينا .

٦ ـ هل حاول صاحب الوثيقة التأثير فى الجمهور بأسلوبه الأدبى وهل شوه الحقائق عندما ألبسها ثوبا أدبيا ؟ وهنا يجب تطبيق القاعدة التى تقول بوجوب الشك فى صدق الوثيقة كلما غلب عليها طـابع الأدب

أما المجموعة الثانية فتتكون من الأسئلة الآتية :

١ ــ هل كان الكاتب فى حالة عقلية تسمح له بملاحظة الحادثة ؟ وهل سلم من تأثير بعض العوامل الداخلية اللا شعورية التى تدعو الى الخطأ كالوهم أو الهزيان •

٢ ــ هل تحققت الشروط العلمية فى ملاحظته ؟ وهل كان فى مكان يستطيع أن يرى منه الحوادث ؟ وهل كان خلوا من الهوى وهل فهم ما سمع أو رأى وهل خلط بين حوادث مختلفة •

٣ ــ هل أصدر حكمه على حوادث صرفه الكسل أو الاهمال عن ملاحظتها وهل ذكر أمورا لم يرها •

٤ ــ هل كانت طبيعة الحادثة تسمح له بملاحظتها ذلك لأن بعض الحوادث يحاط بالكتمان كما أن بعضها الآخر لا يستطيع فرد واحد الاستقلال برؤيته كأحد المواقع أو كتطور عادة اجتماعية وفى هذه الحال لا يذكر الراوى ما يرى بل يستنبط ومع ذلك فليس من الممكن أن يتطرق الكذب أو الخطأ الى بعض الأخبار فمثلا لا يكذب الراوى اذا كان الخبر الذى ينقله لا يتفق مع مصلحته أو عاطفته الشخصية أو الدينية أو اذا كانت الظاهرة التى يذكرها معروفة لدى جميع معاصريه ويقل احتمال الكذب اذا استمرت هذه الظاهرة مدة طويلة من الزمن أو شغلت مساحة واسعة بحيث يراها عدد كبير من الناس وهذه هى حال العادات الاجتماعية •

وينتهى التحليل الداخلى بنوعيه الى تقرير بعض النتائج الجزئية المبعثرة المنعزلة وانما كانت كذلك لأنها تتصل بأمور مختلفة تذكرها الوثائق دون ترتيب ومن وظيفة المؤرخ التركيب التاريخى ويتلخص فى ثلاث نقاط :

١ ــ تصنيف الظواهر وهو أن يجمع معلوماته وينظمها على أساس أزمانها وأماكنها ونسبتها الى جماعة أو الى أحد الأفراد وتلك هى أسهل طرق التصنيف وقد تبعها القدماء ومؤرخو عصر النهضة واما أن يصنفها على أساس طبيعتها الداخلية ويقسمها الى ظواهر لغوية وعلمية ودينية

الخ .. ويرجع الفضل فى ابتكار هذه الطريقة الى علماء الألمان واما أن يصنفها على أساس طبيعة الشروط الخاصة التى تتصل بمظاهر النشاط الانسانى كالعادات المادية كالمأكل والملبس والنظم الاجتماعية كالعائلة والطبقات .

٢ ــ الاجتهاد وقد أباحوا فى منهجهم الحديث أن المؤرخ له ان يستخدم الخيال لسد الفجوات فى التاريخ بشرط أن يكون مقيدا بنتائج التحليل والا لو كان الخيال مطلقا لم يؤد الاستنباط فى هذه الحالة الى نتائج جديرة بالثقة .

٣ ــ التعليل اذا انتهى المؤرخ من سد الفجوات والتحقق من صدق فروضه ، وبتطبيقها على النتائج الجزئيه التى هداه اليها التحليل وجب عليه أن يربط هذه النتائج جميعا وذلك بأن يبين العلاقات التى توجد بينها وهذا هو معنى التعليل ثم المرحلة الأخيرة وهى مرحلة العرض ونظرة المحدثين الى التاريخ على أنه وصف للحضارة أى لمختلف مظاهر النشاط الانسانى غير اتجاههم فى طريقة عرضه فجعلوا يستخدمون أساليب واضحة بريئة من طابع الخطابة أو الانشاء أو الفلسفة ويرجع الفضل فى هذا الاتجاه الجديد الى المؤرخين الألمان الذين بدأوا محاولتهم على استحياء فى القرن التاسع عشر وبالجملة لم يعد العرض التاريخى يرمى الى امتاع القارىء أو اسداء النصح اليه أو اثارة عواطفه بل الى مجرد المعرفة وليس معنى هذا أن يتحرر المؤرخ من كل قيد فمن الواجب أن يستخدم لغة واضحة دقيقة حتى يستطيع تحديد تلك المظواهر الانسانية المرنة ويمكن القول بأن المؤرخ لا يمكنه الا اذا أجاد اللغة والا اذا ابتعد عن استخدم تلك الألفاظ التى تدل على معانى مجردة أدعى الى الغموض واللبس منها الى الوضوح ، أ . هـ .

واذا نظرنا الى هذا المنهج خاصة بالنسبة الى الرواة وهو ما سموه بالتحليل الداخلى يجد الباحث أنه مأخوذ من البخارى والمحدثين بالنسبة لنفس الفكرة الأساسية ولكنه عند المقارنة يفوقه منهج المحدثين والبخارى عرضا وموضوعا .

أما عرضا فقد أوجزوه فى كلمات ميسرة عامة شاملة فقد اشترطوا فى الراوى أن يكون مسلما ثقة عدلا ضابطا غير متبع لبدعة يدعو اليها .

وأما موضوعا فهذه الكلمات الموجزة تشتمل على ما فيها فى الرواة وتفوق عنها باشتراط الاسلام الذى هو أصل فى المقاييس ويضفى عليها الثقة بحق ، هذا بالنسبة للرواة أما بالنسبة لطرق التلقى فأين ما شرطوه فى الوثوق للوثائق على الاعتماد . الحفريات والأوراق المتناثرة هنا وهناك التى لا يعترف بها المحدثون ؟ وقد تكون منذ آلاف السنين أين هذا من صيغ الآداء كالسماع والعرض والمناولة ولو شرطوا ذلك لما وصلهم شىء عن تاريخهم القديم والأوسط وكذا أكثر العصر الحديث ولما ثبتت عندهم كتبهم التى عدوها أصولا ثابتة لاتقبل الشك من كتب كبار علمائهم ومؤلفيهم الواجب الاطلاع عليها كما تقدم .

ويلاحظ أن القارىء يبهر حينما يقولون لابد من الشك حتى يتحقق الباحث من صدق جميع تفاصيل الوثيقة أو كذبها وهذا يحتاج الى تحليل الأصول التاريخية ثم بعد ذلك يكون الاستدراك الممتع الذى يخفف من شأن المسألة لقولهم لكن العادة والدربة تخففان من مشقة العمل ويكسبان المؤرخ نوعا من الحدس الذى يعينه على اصابة مواطن الريبة دون عناء كبير .

وأين هذا المنهج من منهج البخارى فى الدقة حيث يقول « كتبت (١) عن ألف ثقة من العلماء وزيادة وليس عندى حديث لا أذكر اسناده (٢)» .

وانظر الى منهج البخارى فى كتابه الحديث : أين هؤلاء منه . يقول لم تكن كتابتى للحديث كما كتب هؤلاء كنت اذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه وكنيته ونسبه وحمل الحديث ان كان الرجل فهما فان لم يكن سألته أن يخرج الى أصله ونسخته أما الآخرون فلا يبالون بما يكتبون وكيف يكتبون وبما تقدم فى منهجه .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٩ .

(٢) مقدمة شرح البخارى للنووى جـ ١ ص ٨ .

ومن من العلماء لا يظن فى نفسه المهارة حتى يحكم حدسه كما يقول الأوربيون لكن البخارى والمحدثين لا يرتضون هذا المنهج مطلقا أساسا لبحثهم العلمى •

وهل سمعت بالمرحلة الثانية من مرحلة التركيب التاريخى وهى اباحة أن المؤرخ يستخدم الخيال لسد فجوات التاريخ بشرط أن يكون مقيدا بنتائج التحليل •

هل يرضى ذلك منهج البخارى والمحدثين ؟ • كلا والله •

ثم هناك فرق جوهرى هام بين منهج الاوربيين ومنهج البخارى والمحدثين فهؤلاء أصحاب المنهج الاوربى الحديث عليهم ان يطبقوا هذا المنهج بينهم وبين انفسهم ويخرجوا به معلوماتهم التاريخية وما عليك الا ان تخبر بانهم اتبعوا المنهج فتصدق ولا عليه من حرج اذا لم يوقفك على خطوات بحثه •

أما البخارى والمحدثون فهم يتبعون منهجهم الدقيق فى وصف الرواة وطرق الأداء وصلة الاسناد وفق الشروط التى شرطوها مما يتعذر استلزامه ووجوده عند الغربيين •

فالمحدثون يعرضون عليك المتن برواته حتى تستوثق به او تبحث عنه فتراه موصولا فى مكان آخر وعند ثقات آخرين هذا فضلا عن قرب زمن التدوين فى عصر النبى وبعده الى عصر البخارى ومن بعده وأهمية الحديث وقداسته وحراسته ، ومعرفتهم أهميته فى الدين والدنيا ومقاييسهم الفريدة وقد كان المستشرق المحقق مرجليوس (١) محقا حينما قال : ليفتخر المسلمون ما شاءوا بعلم حديثهم •

---

(١) تقدمه المعرفة لكتاب الجرح والتعديل لشيخ الاسلام ابى محمد عبد الرحمن ابن ابى حاتم الرازى ط دائرة المعارة العثمانية بحيدراباد الدكن بالهند •